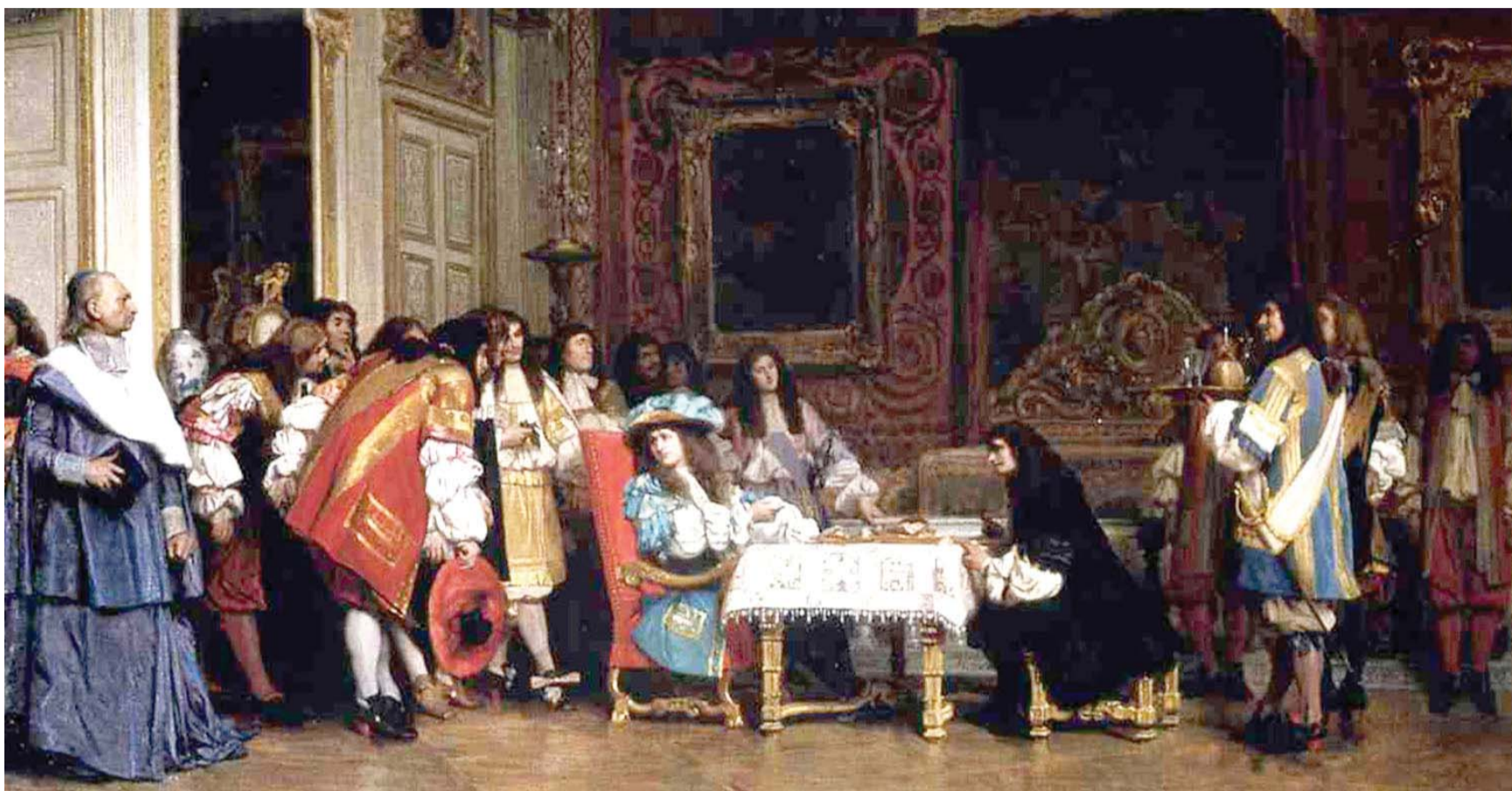


# نساء موليير المتحذلقات.. كوميديا الادعاء هي الأبقى دائما

رائد المسرح الجوال الذي أضحك العالم، صادق الملوك ومات وحيدا وكئيبا



موليير في حضرة الملك لويس الرابع عشر (لوحة للفنان الفرنسي جيروم)

من تاليه، وتمتاز مسرحياته بالبراعة في تصوير الشخصيات، وبالأخص في تكوين المواقف والقدرة على الإضحاك. من أشهر مسرحياته: مدرسة الأزواج، مدرسة الزوجات، الطبيب رغم أنه، مرض الوهم، و"طرطوف" التي تناول فيها النفاق الديني، وتسببت في غضب الكنيسة عليه؛ لدرجة أن القسيس طالب بحرقه حياً، ولكن لويس الرابع عشر ملك فرنسا استطاع حمايته.



**مسرحية «النساء المتحذلقات» تعرض فيها موليير لطائفة من النساء أتين إلى باريس من القرى ورغبن في التشبه بأهلها**

في 1643، اشترك مع ثلاثة من أسرة بيجار: مادلين، وأخيها جوزيف، وأختها جينيفيف، وستة آخرين؛ منهم أستاذه القديم "جورج بينيل" الذي سمي نفسه "لا كوتور" في تكوين فرقة مسرحية لإنتاج وتمثيل المسرحيات. أقدم وثيقة يظهر عليها اسمه الفني "موليير" يرجع إلى تاريخ 1644، وهو غير معروف السبب الذي جعل جان - بابتيست يغير اسمه إلى موليير، لكن يقال إنه قام بتغيير اسمه كي لا يرحج والده الذي كان يعتقد أن التمثيل في المسرحيات يمثل إجحافاً للعائلة. من بعد ذلك وهب موليير حياته للفن بالكامل إلى حين وفاته بعد ثلاثين سنة.

وفي سنة 1658، حضر الكاتب بيير كورني مسرحية قدمتها الفرقة، وغير لهم عن إعجابه بالأداء، وبالمثلة الجميلة "كو بارك" التي ألف لأجل عيونها ماريكيزة المحطة، فكان اسمها الحقيقي هو "ماركيزا - تريزا دو جورلا". زيارة كورني التي لم تكن متوقعة كانت فاتحة خير على موليير وفرقة، وتبعها جوعهم لباريس كمثلين حقيقيين وليسوا مجرد هواة. حظي موليير بعرفة الملك لويس الرابع عشر، وكان يعرض برعايته، وشاهد له بعض العروض، ومن المفارقات أن تقاليد المسرح الحديث قد تأثرت من حيث لا تصدق - بفرقة موليير وطريقة مظهرها في تحية الجمهور والحرص على عدم إدارة ظهورهم احتراماً لحضور الملك وحاشيته.

## أستاذ فن الهزليات

مبدع هذا العالم الساخر إلى حد الفجاعة هو رجل تميزت حياته بالقلب ولم يخلص في سنواته المضطربة إلا للمسرح لأنه جان بابتيست بولان المولود في باريس سنة 1622 والمتوفى عام 1673. ويُعد موليير أحد أهم أساتذة الهزليات في تاريخ الفن المسرحي الأوروبي، ومؤسس ما يسمى بـ"الكوميديا الراقية". قام بتمثيل حوالي 95 مسرحية؛ منها 31

أرماند زوجها له - ولا مانع عندها من أن يستمر عاشقاً لها فقط - عند ذلك يحول مشاعره إلى أختها هنريت وتستجيب لحبه وهنا يكسر أنف الأخت الكبرى وتحاول أن تعطل زواج كليتاندر من أختها وتغريه بنفسها وتقول إنها ستزول على رغبته بقبول زواجها منه ولكنه يقول لها فات الوقت فقد تحول قلبي لهزريت. على الرغم من هذا التقاطع بين مسرحيات موليير والتراث الإغريقي في مسرحيات أرسطوفان على وجه التحديد، في "الضفادع" و"برلمان النساء"، وكذلك شكسبير في "ترويض النمرة"، فإن موليير قد انفرد بهذا الحس الكوميدي الذي لا تكاد تخلو منه واحدة من مسرحياته بل إنه وضع نصب عينيه السخرية أولاً ثم يأتي الموضوع الذي يريد الخوض فيه أي أن الضحك يأتي قبل الموضوع لدى هذا العبقرى الذي استلهمت منه الكوميديا في فرنسا والعالم جميع أعمالها.

## السخرية سيئة الموقف

كل إنسان يصبح محل سخرية إن هو خرج عن الدور الموكول له، بما في ذلك المرأة، هذا ما أراد موليير قوله في جميع مسرحياته، لذلك اتخذ من الإساءة سمة وأسلوباً للولوج في موضوعاته الساخرة من الخيل والمطبخ والمنافق والمتحذلق، وكذلك المرأة حين تتشبه

علم. وفي نظر منتقديه، فإن موليير ذو نظرة محافظة ترفض أن يكون للمرأة أي دور تنويري في المجتمع ويقتصر دورها على الاهتمام بزوجها وأولادها، حتى أنه جاء على لسان والد هنريت، في المسرحية التي تتناول النساء المتعلمات (النساء العالقات)، إذ يقول لزوجته المدعية: لقد كانت أمهاتنا يعشن في البيوت ولا يعلمن شيئاً سوى الطبخ والكس ورثق الغياب وعشن هن وأزواجهن وأولادهن حياة طيبة أما أنتي يا مدعيات العلم فقد سمتمت عيشة الأسر التي تعشن فيها. ويرى الباحث المتخصص على خلفية في هذه المسرحية وجود وشائج تربطها بمسرحيتي أرسطوفان براكسا وليزيستراتا ففهيها اهتمام بالمرأة وتصور لوضعها حين توضع في سلطة من وجهة نظر أرسطوفان في عهد الإغريق. هذا بالإضافة إلى وجود تشابه بينها وبين مسرحية ترويض النمرة لشكسبير، ففي مسرحية شكسبير نرى المرأة المتمردة ترفض الزواج وتسيء معاملة الرجال حتى تتزوج رجلاً يروضها ويخضعها لسلطانه وتبدو أختها الصغيرة وديعة حاملة على العكس منها تماماً.



رديئاً، ويحلله بطريقة تعبر عن شدة الإعجاب، ولا يخفى تكلفه وحذلقته في ذلك.

## مسرح داخل المسرح

بالنظر إلى مسرحيات موليير نراه يسخر أشد السخرية من الأشخاص المدعين في أي أمر من الأمور وتكاد لا توجد له مسرحية لا نرى فيها شخصاً واحداً على الأقل متصفاً بالإدعاء. لقد جعل موليير من الإدعاء قيمة مسرحية وخيطاً درامياً يربط جميع شخصياته مؤكداً بذلك أن الإدعاء هو ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى وكانه يرفع مقولة أن الإنسان هو حيوان مدع.

الأمر اللافت الذي أثار دراستي مسرح موليير هو أنه أول من أسس للمسرح داخل المسرح عبر الزج بشخصيات تمثل أدواراً لم تخلق لأجلها وتصطدم بمواقف تطرح أسئلة غاية في العمق حول مغزى ومعنى الوجود البشري. وهي بذلك تسبق الفنون الكبيرة التي أثارها مسرح الألماني برتولد بريخت في أوائل القرن العشرين حول التغريب وكسر الجدار الرابع في القرن الرابع.

ومن أكثر أصناف المدعين الذين سخر منهم موليير بشدة النساء اللاتي يتركن أعمال المنزل ويهملن القيام بها، وفي المقابل يظهرن ادعاء العلم والمعرفة وحقيقتهم أنهن خواء من أي معرفة أو علم.

وفي نظرة منتقديه، فإن موليير ذو نظرة محافظة ترفض أن يكون للمرأة أي دور تنويري في المجتمع ويقتصر دورها على الاهتمام بزوجها وأولادها، حتى أنه جاء على لسان والد هنريت، في المسرحية التي تتناول النساء المتعلمات (النساء العالقات)، إذ يقول لزوجته المدعية: لقد كانت أمهاتنا يعشن في البيوت ولا يعلمن شيئاً سوى الطبخ والكس ورثق الغياب وعشن هن وأزواجهن وأولادهن حياة طيبة أما أنتي يا مدعيات العلم فقد سمتمت عيشة الأسر التي تعشن فيها. ويرى الباحث المتخصص على خلفية في هذه المسرحية وجود وشائج تربطها بمسرحيتي أرسطوفان براكسا وليزيستراتا ففهيها اهتمام بالمرأة وتصور لوضعها حين توضع في سلطة من وجهة نظر أرسطوفان في عهد الإغريق. هذا بالإضافة إلى وجود تشابه بينها وبين مسرحية ترويض النمرة لشكسبير، ففي مسرحية شكسبير نرى المرأة المتمردة ترفض الزواج وتسيء معاملة الرجال حتى تتزوج رجلاً يروضها ويخضعها لسلطانه وتبدو أختها الصغيرة وديعة حاملة على العكس منها تماماً.

وفي مسرحية النساء العالقات تظهر الأخت الكبرى أرماند مقترعة على علاقة الزوجية وتصفها بالمادية والشهوانية في حين تبدو أختها هنريت وديعة وليس عندها نظرة الرفع للزواج كما عند أختها ولهذا حين يفشل كليتاندر في أن تقبله

ظاهرة النساء المدعيات للعلم والمعرفة أو فلنقل المتحذلقات، على وجه الدقة والتخصيص، مسألة أثارت اهتمام موليير في تلك المرحلة التي تميّزت بتحديد الأدوار بدقة لكل جنس بشري، فلا يتعدى رجل على مهمات المرأة، ولا تأخذ المرأة دور رجل وأضح الملامح والمهام.



حكيم مرزوقي كاتب تونسي

لا يختلف عاقلان في جدوى مناصرة المرأة ضد أعدائها الذكور من أولئك الذين يرون أن مكانها الأنسب هو البيت متنقلة بين المطبخ وغرفة النوم في خدمة أطفالها وزوجها، ودون أن تمر حتى بصالون البيت لبعض الاستراحة والتبرج والقراءة والتحدث.

صارت المساواة بين الرجل والمرأة أمراً بديهياً لا يقبل النقاش في عصرنا الراهن، لكن الطبيعة البشرية لا تغفل عن تلك الطائفة المتأصلة لدى الجنسين، وتعتبر أن الإقلاع عنها نوع من التشنؤ المثير للسخط والسخرية أحياناً.

وكان من الطبيعي أن تعصف التحولات الاجتماعية بعادات الشعوب أسراً وأفراداً فتهز من السلوكيات والعادات والتقاليد في علاقة الرجل بالمرأة، لتكتسب عن مفارقات تبدو غريبة ومثيرة للضحك أحياناً، خصوصاً لدى كاتب المعنى مثل الفرنسي موليير، ومسرحه الشهير في القرن السابع عشر. لم يغفل هذا الكاتب الجوال عن رصد كل الظواهر الاجتماعية ومتابعته بالنقد والسخرية داخل المجتمع الفرنسي في أوجه تحولاته. وكان للمرأة لدى موليير حضور بارز في أن تعكس تلك التحولات على وجه كاريكاتيري يعكس ما آلت إليه قيم كنا نظنها في الأمس القريب اليقة وغير مستهجنة.

## تحولات أدت إلى ثورة

حب العلم والانشغال بالمعرفة والجدال كان شأناً رجالياً بامتياز في عصر موليير، لذلك كانت تعد المرأة المتعدية على هذه المهمة، حالة شاذة تثير الضحك والاستغراب، وكثيراً ما تؤدي إلى نتائج لا تحمد عقابها.

الإدعاء هو بيت الداء ويمكن كل المفارقات والأمراض الاجتماعية لدى موليير في مجتمع كان الأجر بان يطعم كل فرد فيه على مهامه جيداً. ولم يعنا موليير وقتها، في أن تحولات جديدة كانت تلحق على المجتمع لتتراكم وتصنع ثورة في ما بعد.

إقطاعيون يدعون الانتماء البرجوازي في "البرجوازي النبل"، مشعوذون يدعون الطب في "الحب أحسن طبيب"، جهلة يدعون الأدب في "عدو البشر" وناقضون يدعون الدين في "طرطيف".. وهلم جزءاً من النماذج البشرية الكثيرة التي تناولها موليير بالنقد اللاذع في مسرحه حتى كاد لا يسلم منه أحد، ولولا حظوته لدى الملك عندئذ لانتقم منه الجميع لأنه نقد الجميع دون هوادة، بمن فيهم أولئك المقربون من البلاط الملكي. كان موليير كان يحذر من حدث ما سوف يأتي بعد عقود من مسرحه، ويقوض تلك العلاقات السائدة عبر نصوص قانونية مستحدثة، اسمه الثورة الفرنسية.

مسرحية "النساء المتحذلقات" تعرض فيها موليير إلى طائفة من النساء تعثرن في باريس من القرى، ورغبن في أن



قبر موليير في مقبرة لو بير لاشيز بالعاصمة الفرنسية باريس